الخطبة الثامنة والعشرون

النصر مع المشقة

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: 2 / 214]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى من والاه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

1- لقد دلت الآيات القرآنية على وجوب نصرة الدين والعمل له في آيات عامة وخاصة، وفي آيات مطلقة ومقيدة، فأبدأ بالعام كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: 41 / 33].

والدعوة إلى الله تعالى هي الجهاد، والجهاد من المجاهدة والمكابدة وتحمل الشدائد والأذى، وتحمل العذاب والفقر والمحاربة من قبل الأهل والعشيرة،

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: 5 / 35].

1- تقوى الله، 2- وتحري الطريق المثلى في سبيل نصرة الله، 3- والجهاد بكل ما منحك الله إياه -جسمياً ومالياً وكلامياً وكتابة - ونصرة للمؤمنين وتثبيتاً لهم وتشجيعاً -إخلاصاً لله- وإيماناً به، واحتساباً للأجر عنده فقط.

- (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، لعل: ليست احتمالية في القرآن، وإنما هي تأكيدية بإذن الله، ولكن أدباً مع الله تعالى، إذا فعلنا ذلك فإننا بإذن الله من المفلحين، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 29 / 69].

- (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) أي: لننصرهم والله أعلم، والنصر في الدنيا أو في الآخرة أو كلاهما معًا، ألم يقل سبحانه وتعالى مصداقًا لذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 16/ 41 - 42].

ثم البشرى الكبرى والفرصة الكبرى والأمنية العظمى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فإذا كان الله معك ربحت كل شيء وإذا خسرت الله سبحانه خسرت كل شيء ولو كنت تملك الدنيا وما فيها، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة العظمى.

أليس هو رسول الله ﷺ، وخاتم النبيين؟ أليس هو سيد ولد آدم ولا فخر؟ أليس هو الذي كلم الله سبحانه وتعالى وفرض عليه الصلوات؟ أليس هو الذي نبع الماء من بين أصابعه؟ أليس هو الذي فَرَّقَ السحاب في السماء عندما قال: «حوالينا ولا علينا» وفعل بيده هكذا وهكذا يفرقها؟ أليس هو الذي جمع السحاب في السماء الصافية وجعلها تمطر؟ أليس هو الذي جاءه ملك الجبال يطلب منه أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْن في رجوعه من الطائف؟ أليس أليس وآلاف منها... هذا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه.

أُوذِي في الله كمن لم يُؤذَ أحد في التاريخ: ألم يوضع على رأسه الشريف وهو ساجد في الكعبة كرش وروث ناقة قد ذبحت من قِبَلِ عُقبة بن أبي مُعَيطْ حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها وأرضاها وأزالتها عنه؟ ألم يُخْرِجْهُ قومه من بيته ومدينته؟ ألم يقاطعوه في الشِّعب ثلاث سنين؟ ألم يأتمروا على قتله؟ ألم يتهموه في عقله؟ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: 68 / 51]، وقالوا: إنه شاعر، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: 37 / 36]، وقالوا: إنه لساحر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: 51/ 52]، وقالوا: إنه لكاهن، قال

تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 52/ 29]. ألم يقاتلوه في (28) غزوة؟ ألم تتحد قبائل العرب قاطبة لأول مرة في تاريخ العرب في غزوة الأحزاب على استئصاله هو وجماعته؟ ألم يؤذوه ويجرحوه في وجهه عليه الصلاة والسلام؟ ودخلت في وجنته حلقة المغفر حتى أخرجها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بأسنانه التي سقطت جراء ذلك؟ ألم يتهموه في عرضه وشرفه وأحب أزواجه إليه؟ ألم يجع ولم يوقد في بيته نار الهلال والهلالين -كما قالت زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها- في البخاري؟

إذن هي سنة الله سبحانه، لمن أراد أن يَنْصُرَ دينه ويجاهد في سبيله سبحانه، لا بد وأن يدفع الثمن؛ لأن له الجنة، والجنة غالية.

قال ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذي بإسناد حسن، ومعناه: من خاف أن يُدْرَك في الطريق من قطاع الطرق واللصوص، فهذا الذي يخاف يمضي في طريقه بسرعة، والدُّلْجَة: هي السير في أول الليل أو آخره، بنشاط وقوة ومن فعل هذا بلغ بغيته. وكذلك الذي يريد الجنة يسير إليها ليلاً ونهاراً بجد وهمة ونشاط حتى يبلغها، لأن الجنة غالية. وصحابة رسول الله ﷺ تعلموا من رسول الله ﷺ، وراقبوه وعرفوا الطريق وعلموا أنه لا بد من المجاهدة ولا بد من المشقة حتى يبلغوا النصر والنجاح في الدنيا والآخرة، وخذ أي أصحابي أو صحابية ترى ذلك واضحاً جلياً في سيرتهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 2 / 214]، إذن من سنن الله تعالى أن يمتحن الناس وأن ينزل بهم البلاء كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 29 / 3-2].

وقيل: (البأساء): المصائب في الأموال، (الضراء): المصائب في الأنفس، (زلزلوا): الخوف الشديد من القتل والتشريد وانتهاك الأعراض وأنواع البلايا والرزايا والأهوال وقتل الأولاد وهلاك الحرث والنسل، حتى يقول الرسول ﷺ -وهو أثبت الناس وأقوى الناس إيمانًا وأعظمهم ثقة بما عند الله سبحانه- والذين آمنوا -وهم الأثبت بعده-..، وقيل: إن قوله سبحانه: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: أنه المتكلم بما يتحدث به الناس وبما يشعر به الناس، لأنه يعلم ما عند الله له، وقيل: إن هذا صار في غزوة الأحزاب.

فالكل يلجأ ويسأل وينادي ويطلب النصر بأشد ما يكون الحال، القلوب كلها متجهة إلى الله، سدت جميع الأبواب إلا باب الله سبحانه، قُطِّعَت جميع السبل إلا سبيل الله، لا رجاء بأحد إلا بالله والكل يطلب النجاة من الله: (مَتَى نَصْرُ اللهِ)؟ فعندما تُصَّفَى النيات ويخلص الرجاء ويعلم أنه لا ناصر إلا الله تعالى، ولا اعتماد إلا على الله تعالى يأتي الجواب: (ألا) استفتاحًا وتنبيهًا للقلوب، (إن) للتوكيد والتثبيت، (نصر الله) النصر من الله والله تعالى قريب، وعد من الله تعالى، ولو زالت السموات والأرض عن أولها وآخرها لما أخلف الله وعده وحاشا لله ذلك سبحانه وتعالى.

قال عليه الصلاة والسلام: «لهدم الكعبة حجراً حجراً أهون عند الله من قتل امرئ مسلم»، قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 9 / 8]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 85 / 8]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 5 / 59].

أحب أبو بكر رضي الله عنه أن يدعو المشركين في مكة إلى الإسلام، وأراد أن يصدح بدعوة الحق ويعلن أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر حتى لا ينال الأذى والتعذيب من أهل قريش، وبعد إلحاح من أبي بكر

رضي الله عنه وأرضاه وافق رسول الله ﷺ على ذلك، فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى الكعبة، وقام خطيباً فيها يدعو الناس إلى الإسلام. وبذلك يكون أول خطيب في الإسلام وعند الكعبة المشرفة، وما إن سمعت قريش بدعوته إلى الإسلام جهاراً نهاراً حتى هبّوا إليه يضربونه ويؤذونه، ووقع أبو بكر رضي الله عنه على الأرض فصاروا يطؤونه بأقدامهم ويدوسون عليه، وقام الحقير الفاسق عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين يابِسَتين على وجهه يشوهه، ثم قفز على بطنه يريد قتله، والمسلمون وقتها كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها ثمانية وثلاثين رجلاً، وكانوا في الكعبة وضرب الصحابة رضوان الله عليهم أيضاً من قِبَلِ عشيرتهم.

وجاء بنو تَيْم إلى المسجد وتعاهدوا وأقسموا إن مات أبو بكر رضي الله عنه، ليقتلن عتبة بن ربيعة. وأُغمي على أبي بكر، فما أفاق إلا مساء وكان أول ما قاله: «ما فعل رسول الله ﷺ» يريد الاطمئنان على رسول الله ﷺ، فما أكل ولا شرب ولا رضي بشيء ولا يريد إلا رؤية رسول الله ﷺ -وهو ضعيف هالك- فخرج يتكئ على أمه من جهة، ويتكئ على أم جميل بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب وكانت مسلمة تخفي إسلامها، وأم أبي بكر هي أم الخير، لم تكن مسلمة فجاء إلى رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم فانحنى عليه رسول الله ﷺ يُقَبّله، وأكبَّ عليه المسلمون وحزن عليه رسول الله ﷺ وهو يقول: ليس بي بأس يا رسول الله إلا ما نال الفاسق عتبة من وجهي، ثم قال: يا رسول الله هذه أمي بَرَّة بولدها، وأنت مبارك فادعُ لها أن تسلم، وادعُ لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام فأسلمت رضي الله عنها وأرضاها.

قتل أبو جهل سُمَيّة بنت الخياط، في حربة في عفتها، وقتل أبو جهل ياسر زوج سمية، وعذبت قريش بلالاً وعماراً، وقتلت الهند جماهير المسلمين المهاجرين إلى باكستان، وقتل اليهود وما زالوا يقتلون المسلمين في فلسطين، فدير ياسين ليست

بعيدة، وجرائمهم بالأمس واليوم، وقتل الصليبيون المسلمين، وخاطبوا البابا بقولهم إن خيولنا تسبح بدماء المسلمين، وهذا كان في القدس، ودخل الإنكليز والفرنسيون مصر وسوريا وفلسطين فنهبوا وقتلوا واغتصبوا وشردوا... ودخل الإيطاليون ليبيا ففعلوا ما لم تفعله الوحوش الكاسرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 28 / 4]، والانتقام من الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 7 / 133]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 7 / 137].

وهذا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسلم، فجاءت أمه فربطت يديه ورجليه، وجعلت يديه إلى عنقه ووثقته بالحديد، وجاءت به يتبعه أناس وأمه من خلفه تسبه وتشتمه وهي الصعبة بنت الحضرمي. أخرجه البخاري في التاريخ، وعذبت قريش بلالاً، ألبسوه دروع الحديد وتركوه في الشمس وهو يقول: أحدٌ أحد، فمر به ورقة بن نوفل وقال: والله لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً (أي: بركة، رجاء رحمة الله) أي: لأتبرك به. وكان أمية بن خلف يذيقه أنواع العذاب، كان يربط عنقه بحبل ويجعل الولدان يطوفون به في الحر بين جبال مكة. ابن سعد في الطبقات، ولما مر رسول الله ﷺ بعمار وأهله يعذبون قال: «أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» طب - الحاكم - البيهقي - عن جابر بن عبد الله. وقال ﷺ: «اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت» الحاكم - أحمد - البيهقي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قُتل قتيل على عهد رسول الله ﷺ لا يُعلم قاتله، فصعد رسول الله ﷺ المنبر وقال: «يا أيها الناس أيُقتل قتيل وأنا بين أظهركم لا يُعلم من قتله؟! لو أن أهل السماء والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لعذبهم الله بلا عدد ولا حساب» قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح - رواه الطبراني.

أم أنمار الخزاعية اشترت غلاماً من سوق النخاسين في صحة جيدة، وكان هذا الغلام الذي لم يبلغ الحلم اسمه خباب بن الأرت، وعلمته صناعة السيوف، وجعلت له دكاناً يبيع فيه السيوف، وكانت هي أم أنمار تقبض الأرباح، وما إن سمع خباب برسول الله ﷺ حتى أسلم، فكان سادس ستة أسلموا، ولما علمت أم أنمار بإسلامه بعثته إلى أخيها سِباع بن عبد العزى مع فتيان خزاعة، فضربوه وعذبوه بعد أن أخبرهم بصراحة وجرأة بأنه أسلم واتبع رسول الله ﷺ. وما زالوا يعذبونه حتى فقد وعيه والدماء تنزف منه، وشاع الخبر في مكة، وتعجب الجميع من جرأة خباب بإعلانه الإسلام، خاصة وأنه ليس له قبيلة تحميه أو تدافع عنه، فمن أين له هذه الجرأة؟! وكانت جرأته هذه هي التي دعت بعض من أسلموا بالجهر بالدعوة والوقوف وجهاً لوجه أمام الكفر وأعوانه، فكان رضي الله عنه مثلاً يحتذى.

وأخذ سِباع بن عبد العزى على عاتقه تعذيب خباب، فكان يلبسه الدروع ويلقيه في صحراء مكة في الشمس الملتهبة، ناهيك عن الضرب والحرق ومنع الماء حتى يعطش عطشاً شديداً، ثم يسألونه: ما تقول في محمد؟ فيقول: عبد الله ورسوله، جاءنا بدين الهدى والحق، ليخرجنا من الظلمات إلى النور. فيضربونه، وتأتي أم أنمار، فتأخذ حديدة محماة من الموقد وتضعها على رأسه حتى يدخن رأسه ويغمى عليه. وجاء إلى رسول الله ﷺ يشكو قسوتهم وظلمهم فدعا له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم انصر خباباً»، فأصيبت أم أنمار بصداع، فكانت تصرخ صراخ الكلاب من الألم، وقام أولادها يطلبون لها الشفاء، فكان الاقتراح أن تكوى في رأسها بالحديد المحمى،

ولم يستطع الأبناء فعل هذا بأمهم فانتدبوا خباب لهذه المهمة، وماتت أم أنمار بيد خباب رضي الله عنه، انتصر الله سبحانه لخباب ورأى مصرع سباع في غزوة أحد على يد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً.

وعاش خباب رضي الله عنه وأدرك الخلفاء الأربعة، وكان عمر رضي الله عنه يقربه كثيراً، واغتنى خباب وصار له من المال والذهب والفضة وكان يضع ماله في مكان من داره مكشوف حتى يأخذ منه الفقراء والمحتاجين من غير سؤال، وكان يبكي ويقول: أبكي لأن أصحابي مضوا ولم ينالوا أجورهم في الدنيا، وأني بقيت ونلت المال والذهب والفضة، وإني أخاف أن يكون هذا أجري. ولما مات قام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قبره وقال: «رحم الله خباباً، فلقد أسلم راغباً وهاجر جائعاً وعاش مجاهداً، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً» الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أُسْدُ الغابة.

والعبرة: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: 2 / 214]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 8 / 10]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: 30 / 47]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: 6 / 34].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم